رحلة بكنغهام في العراق

نقلها الى العربية
محمد على حلاوى

القسم الثانى

وفى اليوم الثانى من رجوعنا من الحلــة ، انتــابتنى حمى شــديدة بسبب الحــر والارهاق الشديدين فلازمت الفراش فتــرة من الزمن ، كان خلالها مرافقى فى السفر يعانى وطأة المرض أيضا • ثم أخذت استعيد قواى ، ولكن لم يمض علي اسبوعان حتى انتكست ، ذلك ان المستر ريج طلب منى تعيين خط العرض لمدينة بغداد بواسطة قياس خط الزوال الشمسى (Meridian Altitude) عند الظهر فتعرضت للشمس فكانت تلك الانتكاسة الشديدة[١] •

وقد عنى الدكتور هاين (Hine) طبيب المقيمية بمعالجتى ، ولم يأل المستر ريج وعائلته جهدا فى رعايتى خلال ملازمتى الفراش ولكن حالة الجو حالت دون شفائى العاجل ، فقــد كانت درجات الحرارة منذ نهاية تموز حتى منتصف آب تتراوح بين **١١٩** و **١٢٢** درجة فهرنهايت فى الظل عند الظهر ، وكانت تهب بين الحين والآخر رياح الصحراء « السموم » • وقد شهد الكل بوطأة الحر الشديدة التى لم يسبق أن اجتاحت المدينــة لعدة أيام خلت • وبلغنا من أحد القادمين مؤخرا من استانبول عما صارت اليه الحالة فى البلاد من جراء الحر الفظيع والجفاف الشديد ، فنجم عن ذلك حدوث عدة وفيات • وبلغنا أيضا ان أحد الاكلاك النازلة من الموصل الى بغداد قد هاجمــه الاعراب وقتلوا من كان عليه •

ان استمرار شهر الصيام وبقاء صحتى على ذلك الضعف ، يضــاف الى ذلك الحــر الذى لا يطاق كانت عوامل كافية لتأخير رحلتى الى الهند الى ان تتبدل الحالة وتؤاتينى الظروف الملائمة •

وفى اثنــاء مرضى الاخير قدمت سفينتان الى البصرة من الهند ، الاولى اورورا (Aurora) التابعة لشركة الهند الشرقية وقد جلبت رسائل رسمية وأبحرت ثانية لتحمل مطران كلكتا من بومبى الى

---

(١) ان مشاهدة خط الزوال الشمسى فى يوم ٤ آب ١٨١٦ لتعيين خط العرض لمدينة بغداد ، أظهرت النتائج الآتية :

	دقيقة	درجة
ارتفاع الحافة السفلى للشمس عن الافق	٤١	٧٣
زاوية نصف قطر الشمس	١٦	
ارتفاع مركز الشمس عن الافق	٥٧	٧٣
البعد القطبى	٠٠	٩٠
بعد السمت	٣	١٦
ميل الشمس بالنسبة لارتفاعها فى يوم الاعتدال	١٨	١٧
خط العرض	٢١	٣٣

البنغال والثانية الباخرة (Favourite) التابعة للبحرية الملكية البريطانية المعقودة اللواء للكابتن مود الذى استولى على سفينة انكليزية كانت تحمل عبيدا من مسقط ، وأبحرت بسرعة من البصرة حتى انى فقدت الامل باللحاق بهـا فى الوقت المناسب •

ومما خفف علي وطأة العزلة تخفيفا كبيرا وجود مكتبة نفيسة عامرة بالكتب المفيدة فى دار المستر ريج • والفيت أيضا فائدة ومتعة فى مجموعة الآثار الكثيرة القيمة التى أحرزها المستر ريج • وكان معظمها آثارا بابلية تتألف من الاختام الاسطوانية والتمائم والحروز والتماثيل • ومما لفت نظرى بوجه خاص الاختام الاسطوانية المثقوبة عند القاعدتين كما لو كانت تتدلى على الرقبة والنقوش التى عليها مصرية بحتة ، هذا الى آثار أخرى منها كرة مجنحة ، خطوط متماوجة من الماء ، زهرة اللوتس ، القمر ، كرة فى قارب ، قرابين من الغزلان ، رؤوس الاكباش ، الهة مشعشعة مثل أزيس (Isis) وكهنة فى نفس الهيئة ، وآلهة على عروش مشابهة لعروش مصر ، مع خليط من الاشكال والرموز الاصطخرية ، وعلى معظمها كتابات بهيئة نصل السهم (Arrow-Headed) كالتى اكتشفت فى خرائب اصطخر وبابل ونينوى(٢) • والى جانب تلك الآثار ، شاهدت رأس كبش رائع من العقيق كالاله أمون (Ammon) وبقرة أو ثور نحاسى كالاله ايبس (Apis) أو منفيس (Menvis) ، وتمثال لرجل جالس وعلى ركبتيه درج ملفوف مصنوع كله من النحاس باسلوب مصرى محض ، وحجر قاشان معتم مثقوب طوليا ومغطى بكتابات ناعمة ، وغيرها من الآثار والملتقطات الصغيرة •

ومن بين النقود مجموعة من المسكوكات الفضية التى عثر عليها فى وعاء على شاطىء دجلة وقد انتقلت تلك المجموعة الى حوزة المستر ريج بصعوبة ذلك لان الباشا رغب فى اخفاء حقيقة الكنز المكتشف فى ولايته خشية ان يصل الخبر الى مسامع السلطان فى استانبول مبالغا فى قيمته ، فينتج عن ذلك أن يطالب السلطان بالتعويضات • لان جميع هذه الكنوز المكتشفة بهذه الطريقة من حقه الشرعى • وتلك المجموعة تحتوى على نقود يونانية وكورنثية ، مع عدد من مسكوكات الاسكندر والانبراطور انطيوخس • وهنالك نقود فضية أخرى على وجهها صورة قلعة ذات ابراج تحتها أسدان وفى القفا صورة رجل يطعن حصانا فى جبهته قرن ، وهذا الشكل غالبا ما يرى على منحوتات اصطخر ، فمن المحتمل ان هذه النقود عثر عليها فى ذلك المكان • والى ذلك فقد وجدت أيضا أوسمة ذهبية وفضية من العهد الساسانى لسابور واردشير ، ومجموعة من الاختام والخواتم والطلاسم مكتوب عليها عبارات دينية •

ومن الحقائق الثابتة حول هذه الاختام الاسطوانية البابلية التى كانت حسبما يظهر تزين الرقبة كالتمائم المصرية ، ان أخذها عثر عليه ،

(٢) يريد انها كتابات مسمارية (Cuneiform) وقد فك رموزها عام ١٨٤٦ الرحالة الاثرى الانكليزى السر هنرى رولنسن (H. C. Rawlinson) ومن يود الاطلاع على مراحل حل رموز الكتابة المسمارية وتطوراتها فليرجع الى كتاب :
Wallis Budge, "Rise and Progress of Assyriology" [London, 1925].
(المترجم)

البارون هالر (Baron Haller) **الرحالة الالمانى** المعروف جيدا فى اليونان ، **فى سهل ماراثون** (Marathon) ، **ومما لاشك فيه ان احدى الجيوش** الفارسية تركتها هناك فى ذلك اليوم التاريخى ومن المحتمل انها كانت لاحدى الفرق البابلية التى لاقت مصيرها المحتوم ٠

وكانت من بين النقود الفضية التى عثر عليها على شاطىء دجلة قطعة يشاهد على وجهها فرس البحر وعلى سطح الماء سفينة يونانية محملة بالرجال المسلحين مع الخوذ والدروع واما القفا فغير واضح بالمرة ٠ وعلى بعض النقود الاخرى صورة بوم بأرجل صقر ، وعلى البعض الاخر صورة رجل ملتح يقود فرسين فى الماء ، ولعله يرمز الى **الالهين منيرفا** (Minerva) **ونبتون** (Neptune) **، وعلى** البعض الاخر صورة قلعة ، وعلى أخرى عربة جميلة يجرها حصانان عليها رجلان احدهما محارب والاخر سائق كالنحت المنقوش على كهف بيت الوالى فوق مساقط النيل فى نوبيا ٠

ومن بين الآثار الغريبة خاتم يزعم انه لاحد الخلفاء نقش فى بغداد القديمة ويحتوى على الكلمات « يا الله » بحروف كوفية كبيرة غائرة على مادة تشبه الاختام القديمة ٠ وهنالك خاتم بلورى عليه كتابات عبرية يسهل فك رموزها ولكنها غامضة فى كليتها ، وقد ادعى الذين عثروا عليه انه خاتم سليمان ؟ وغالب الظن انه خاتم أحد اليهود القرائين فى بابل من ذوى المنزلة المرموقة ٠

ومجموعة الآثار البابلية هذه ذات علاقة وثقى بالرموز المصرية من جانب وبالرموز الهندية من جانب اخر وهى تدل على ما كانت عليه بابل من اعتقاد بحكم توسطها بين هذين المصدرين الكبيرين لخرافات ، الامر الذى جعلها تستقبل بين الحين والاخر بالالهة والعقائد والاساطير الغامضة وتتأثر بها ٠

ان الحر الشديد حال دون اقامة الاحتفال بمناسبة ميلاد الامير ولى العهد (١٢ آب) ولكن حرس المقيم العام الهنود اقاموا استعراضا ، وأخذ الزوار والمهنئون بملابسهم الرسمية يتوافدون الى الديوان حسب المراسيم المعتادة ٠ وكان من بين هؤلاء الجماعة اثنان غريبان فقط ، احدهما طبيب جراح شاب جاء الى هنا من دمشق سعيا وراء عمله ، والآخر سكرتير القنصلية الفرنسية المسيو (M. Vigoroux) وكان منحرف الصحة آنذاك وراهب كبير السن هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ورجل فارسى معمّر يتذكر حصار نادر شاه لمدينة بغداد فقد ولد عام ١٧٢٠ ودرس فى رومة وجاء هنا بصفة رئيس الكنيسة الارمنية فى هذه المدينة ٠ والى هؤلاء فقد جاء عدد من المسيحيين واليهود وأفراد من الدراويش ٠

ان نصارى بغداد قليلو العدد ، ولكن اليهود ، كما يقال ، يربو عددهم على عشرة آلاف فى هذه المدينة وحدها ، ويلوح انهم أخذوا فى التزايد فى هذا القسم من العالم دون سائر الاقسام منذ سبي بابل ونينوى العظيمين عندما جيء باسلاف هؤلاء اليهود عبيدا ارقاء من فلسطين ، فحافظوا على سلالتهم بعدم التزاوج مع غيرهم ولم يخوضوا غمار حروب مدمرة لانهم يندر ان يشتركوا فى نزاع وحرب مع اسيادهم ٠

من الرحلات المفيدة الى بلاد الشرق ، رحلة

بنيامين التطيلي ، ويظهر لي ان ملاحظاته العامة الدقيقة اسيء اليها من غير حق ، فان كتابه الاصلي الذي دوّن بالعبرية لم يفهم بكامله لدى قراء كتب الرحلات(٣) •

وعلى بعد يومين من مدينة بغداد تقوم مدينة جاهيجان (Gehiaga) ويظن انها مدينة الفلوجة الحالية (٤) وقد ظنها بنيامين انها مدينة رسن (Resen) المذكورة في العهد القديم • وعلى مسيرة يوم منها تقوم خرائب بابل ويشير بغموض الى قصر نبوخذنصر الذي لا يمكن الدخول اليه لكثرة الحيات والحيوانات الكاسرة ، ويشير أيضا الى اطلال المجيبلة حيث كان على ما يظهر يقوم القصر والجنائن المعلقة ، وهو القسم الاوحد من هذه المنطقة الذي يدعى بابل حتى الوقت الحاضر •

وهو يميز بوضوح بين هذا وبين برج بابل(٥) (Tower of Babel) الذي يصفه بقوله انه يبعد أربعة أيام من الحلة ، وكان يسكن الحلة حينذاك عشرة آلاف يهودي وهو عين عددهم في بغداد اليوم ، والرقم الذي يورده بنيامين عن سكان بغداد في أيامه يساوي عددهم تقريبا اليوم في الحلة ، ويظهر ان مجموع عددهم في المدينتين لم يزد ولم ينقص ، والاختلاف حصل في تغيير الاسم •

(٣) يرى بعض الباحثين ومن بينهم الدكتور مصطفى جواد أن بنيامين لم يزر العراق وان ما ورد في كتابه انما استقاه من مصادر اخرى • وذكر بكنكهام ان بنيامين بدأ رحلته عام ١١٧٣ م ولكن حسبما جاء في [Jewish Encyclopedia Vol. III, p. 34] انه خرج من الاندلس عام ١١٦٠ ورجع عام ١١٧٣م أي ان رحلته استغرقت ثلاثة عشر عاما • وقد نقل بكنكهام ما ذكره بنيامين عن بغداد • ولم نر حاجة الى ترجمة ما نقله ومن شاء الوقوف على ذلك فليرجع الى الترجمة العربية لرحلة بنيامين المطبوعة في بغداد (المترجم) •

(٤) وردت هذه اللفظة مصحفة في اغلب نسخ رحلة بنيامين • وظن بكنكهام انه اراد بها الفلوجة الحالية وهو وهم واضح بالنظر الى اتجاه طريق الحلة • ومن رأى الاستاذ يعقوب سركيس ان هذه اللفظة مصحفة عن « درزيجان » وهي قرية كبيرة يعين ياقوت موقعها تحت بغداد على دجلة بالجانب الغربي منها ، وبها سميت المدائن ، واصلها درزنيدان فعربت على درزيجان •• أما الاستاذ عباس العزاوي فيرى انها محرفة عن « زريران » القديمة وموقعها في الاراضي المعروفة الآن بالسيافية في الجانب الغربي من دجلة بازاء المداين والرأي الاخير هو الارجح لان زريران كانت في ايام بنيامين على طريق القوافل بين بغداد والحلة مر بها واسهب في وصفها ابن جبير (رحلة ص ١٦٩) • وكانت هذه البلدة المرحلة الاولى من طريق الحج الكبرى التي كانت في تلك الايام تنتهي بالكوفة قبل ايغالها في الصحراء • فكان المسافر من بغداد يمر بقرية صرصر بالقرب من مشهد سلمان الفارسي ثم يدخل زريران ومنها يصل قرية كانت تعرف الفراش وقد مر بها فتاحية حوالي ١١٨٣ فحرفها « فولاش » (رحلة ص ٧٠) ومنها الى قرية القنطرة فالحلة • وقد قطع هذه المسافة ابن جبير في ثلاثة أيام وهي المدة التي قضاها بنيامين بين بغداد وخرائب بابل ورأي الاستاذ العزاوي يتفق مع رأي المستشرق أوبر ماير في ان جاهيجان محرفة عن زريران (Obermeyer. Land. Baby. 161) (رحلة بنيامين الترجمة العربية ص ١٣٩) •

(٥) ظن بنيامين مثل غيره من قدماء الرحالين ان الاثر المعروف بالبرس هو برج بابل الوارد ذكره في التوراة والظاهر ان هذا الاعتقاد قديم جدا ••• ويقول ياقوت : « ان البرس موضع بارض بابل به آثار لنبوخذنصر وتل مفرط في العلو يسمى صرح البرس » وقد دل التحقيق الحديث على ان هذا البرس (زقورة Ziggurat تدعى Entenen Anki ومعناها « بيت الحجر الاساسي للسماء والارض» وكانت قائمة بمعبد مردوخ في بابل وقد اكتشف بجانب البرس بقايا معبد الاله نبو رب الحكمة والاداب عند قدماء البابليين (رحلة بنيامين ص ١٤١) •

ويذكر بنيامين باسهاب وصف ''Birs'' (پورسيبا) ، وهو بالاضافة الى تعيين بعده بدقة اجمالية باربعة أميال عن مدينة الحلة ، يقول انه مشيد بالطابوق الذى يدعى محليا بالآجر ابعاده (٨) انجات عرضا و (٦) انجات ثخنا و (١٢) انجا طولا وهى قريبة الى الواقع ، ويبلغ طول أساساته ميلين • ويذكر عن مصاعده الملتوية التى تؤدى الى أعلى البرج والتى لا أثر لها الآن ومن القمة يمكن مشاهدة ما حوله الى مسافة عشرين ميلا وكله سهل منبسط ، ويستطرد بلغة الاقدمين فى قوله ان « هذا المكان قد دمر بصاعقة من السماء » ذلك لانه رأى كتلا كبيرة مزججة ، ويقول ان القسم العلوى من البناء قد دمر ولم يبق منه الا الاقسام السفلية التى ارتقى قمتها • وعلى مسيرة نصف يوم مدينة نفاحة (Napheus) يسكنها حوالى مائتى يهودى وفيها كنيس وعلى بعد ثلاثة فراسخ يقوم قبر النبى حزقيال الذى لا يزال موجودا • وهذا مما لا يدع مجالا للشك فى ان بنيامين قد زار شخصيا « برس نمرود » الذى وصفه بدقة على اعتبار انها اطلال برج بابل •

ولو لم أكن معتل الصحة ، ولو لا حرارة الجو غير الاعتيادية لزرت بعض الاماكن التى وصفت فى هذا الكتاب ، نقلا عن أقدم كتب الرحلات ولاسيما (الفلوجة) وبعض مزارات اليهود المقدسة • ولكن لم يكن فى وسعى ، وأنا على ما ذكرت ، ان أتجول فى هذا الحر ، فخصصت معظم أوقاتى لقراءة الكتب الخفيفة لان قابليات الفرد الذهنية تعجز عن استيعاب المواضيع التى تتطلب جهدا وتركيزا فى التفكير •

وقد زرت فى ليالى رمضان ، جميع المساجد فى أوقات الصلاة عند المساء ، وكنت أمضى متجولا حتى منتصف الليل فى الاسواق استريح فى المقاهى •

ولم أشاهد بين جوامع بغداد كلها ما يمكن مقارنته بجوامع القاهرة أو القدس أو دمشق أو حلب أو ديار بكر • ان جامع الميدان الذى اجرى عليه أخيرا بعض الترميمات والتزويق ذو منارة وقبة جميلتين ، وهو مزين بالكاشي الملون والرسوم والكتابات ، ولكن ليس فى داخله ما يناظر جماله الخارجى عدا نظافته واضاءته اللطيفة ، وباستثناء ذلك لا يستحق وصفا خاصا •

وجامع الوزير يحاذى النهر قريبا من الجسر ، وهو واسع الارجاء ، له قبة جميلة يدل على ذلك مظهرها اللطيف من الخارج ، ولكن داخله قذر ويتطلب ترميمات كثيرة •

اما جامع الباشا فيقرب من جامع الوزير ويمتاز باضاءته الجيدة فالمصابيح الخارجية التى على حوض المنارة هى الوحيدة فى كافة ارجاء المدينة التى تبقى مضيئة حتى مطلع النهار ، اما من حيث بنائه فلا يتميز بصفات بارزة ، وفن عمارته لا يدل على ذوق لطيف ، ومنارته مائلة الى درجة تبدو انها آيلة للسقوط • وأوسع جوامع بغداد ، جامع عبدالقادر ، ولعله أحسن جوامع بغداد ، ولكن ليس فيه ما يجلب الاهتمام سوى قبابه اللطيفة المسطحة التى تثير الاعجاب ، وهو أقل شأنا بكثير من جامع سليمان فى القدس والجوامع النبيلة الاخرى فى دمشق وحلب •

اما محلة الميدان فلم تخل من الازدحام كل

ليلة يجتمع فيه الناس على مختلف طبقاتهم ليقضوا ساعات من المرح واللهو كالرقص والغناء .

والاسواق التى غالبا ما تهجر اثناء النهار ، تحتشد أثناء الليل بالناس المتجلبين بأحسن أرديتهم من الشال والمرعز الانقرى ، وهى فى جملتها تكون خليطا براقا من الالوان ، ما عدا العمائم التى تكاد جميعها ذات لون ابيض .

والكآبة الظاهرة التى تسيطر على الطرق المظلمة المعقودة بالطابوق اثناء الصباح ، ترى الآن مضاءة بالمصابيح والمشاعل فى كل حانوت ومقهى ، وكل شىء يبعث على الحياة والانشراح . وفى الواقع ان فى ليالى رمضان فقط ترى اسواق بغداد تضاهى ما يدركه المرء من الوصف الوارد فى كتب الف ليلة وليلة عن المدن الشرقية ؛ وكما بدت لى لاول وهلة كئيبة جرداء اثناء مرورى بها فى النهار ، تبددت خيبة الامل فاستمتعت كثيرا بتجوالى وانغماسى فى مرح الجماهير اثناء الليل .

ولكن المشهد الوحيد الذى أثار سرورى وارتياحى الى حد بعيد ، هو الوقوف فى منتصف جسر القوارب الممتد فوق دجلة ، حيث نسيم الفجر هادىء لا يعكر صفوه شىء ، والنهر يجرى بعظمة وروعة وقد انعكست على صفحة الماء السماء بنجومها البراقة .

وأستطيع ان أرى وانا على الجسر بعض الكسبة والعمال الذين انهكت قواهم جاءوا ليستريحوا من عناء العمل فى زورق يسير على وجه الماء الهادىء ، وانا غالبا ما آتى فى هذا الوقت من الليل فى ليالى رمضان اتطلع من الجسر باعجاب هادىء الى السماء المرصعة بالنجوم والنهر الهادىء حيث لا يعكر صفو وحدتى مخلوق ما ، وأصوات الفرح تنبعث من جانبى النهر المضاءتين على قدر ما تستطيع العين ملاحقة دجلة فى مجراه ، ومن المقاهى الكبيرة تقوم فى الجانب الشرقى قرب المدرسة المستنصرية ترى وكأنها شعلة من النار وتقابلها مقهى أكبر على الجانب الآخر من النهر قريبة من نهاية الجسر أيضا ، وبين هذين الصرحين يمتد جسر القوارب ، وعلى سطح النهر تطفو المشاغل المضاءة والقوارب الملأى بالمواد الملتهبة لتزيد فى روعة المنظر .

وفى أمسية يوم ١٩ آب حيث كانت السماء صافية ، اقترح أحدهم تعيين خط العرض لمدينة بغداد بواسطة قياس زاوية احدى النجوم المعينة لتأكيد صحة ودقة خط العرض المذكور المستخرج يوم ٤ آب . والآلة الوحيدة التى كان يقتنيها المستر ريج هى مزولة اعتيادية لقياس الزوايا وفيها خلل . ولو توافرت لدينا الآلات اللازمة لامكننا فى هذا الجو الصافى الرائع والفضاء المتسع الصالح للقياسات الفلكية تعيين خط العرض بدقة بالغة . ومع ذلك فاننا بدون آلة السدس (Sextant) وساعة لقياس الوقت (Chronometer) وتلسكوب وتقويم فلكى (زيج) اضطررنا ان نقنع أنفسنا بالنتائج المستحصلة من مزولة قياس الزوايا فقط وبعض الجداول الرياضية الاعتيادية . وقد كان فى مقدورنا تعيين خط العرض وظهر لدينا انه ٣٣° ٥٧َ ، أى ان الفرق بين القياسين ضئيل ، واذا أردنا ان نأخذ بنظر الاعتبار الخلل البسيط فى الآلة الوحيدة التى لدينا لظهرت النتائج بين القياسين متطابقة .

وتقرر في مساء يوم ٢٣ آب اعلان اليوم التالي عيدا فاطلقت المدافع بهذه المناسبة • وبالرغم من انه لم يكن في وسع احد رؤية القمر الجديد الذي تعتبر رؤيته ضرورة أساسية لاعلان العيد • الا ان شاهدين ذهبا الى المحكمة وأقسما أمام القاضي انهما شاهدا الهلال الجديد ، وكان ذلك كافيا لمعظم المؤمنين ان يجعلهم في حل من التزامهم بفريضة الصيام في اليوم التالي ، ولكن هنالك جماعات شديدة الورع والتقوى يعتبرون أنفسهم ملزمين بالصيام حتى يشاهدوا الهلال بأعينهم المجردة وهم أقلية ولهم نظائر في بقية الاقطار •

وفي صبيحة يوم ٢٤ آب خرج الباشا مع كبار موظفيه في احتفال عام الى الجامع ، يصحبهم حرس الباشا على ظهور خيولهم والموسيقى تعزف الحانها • والموكب بكليته يشبه تقريبا ما جاء في وصف بنيامين التطيلي لموكب الخليفة عند خروجه من القصر الى الجامع قبل سبعمائة عام ، فقليلا ما تبدلت عادة هؤلاء القوم وأخلاقهم خلال تلك الحقبة الطويلة من القرون •

وصادف يوم ٢٥ آب عيد القديس لويس وقد زار المستر ريج والمستر هاين الباشا ، اما انا فقد صحبت مستر بيلنو الى الكنيسة الكاثوليكية حيث أقيم قداس على روح الملك لويس السادس عشر ، وأنشدت التراتيل بمناسبة رجوع أسرة بوربون الى العرش الفرنسي • وكانت الغرفة صغيرة ومزدحمة ولم يتم القداس بصورة مرضية بل بضوضاء وشكل غير مقبول ، شأن كافة أمور نصارى الشرق ، والاجتماع هذا يثير كافة المشاعر الا الشعور الديني •

وعند رجوعنا الى دار المقيمية ، بلغ مسامعنا ان فتنة اندلعت في كركوك قتل فيها ممثل الباشا ينكجري أغا (Janisary Aga) مع ستين فردا من اتباعه واستولى العصاة على عدد كبير من البغال • وكان المستر ريج جالسا مع الباشا عندما بلغته هذه الاخبار ، وقدتلقاها الباشابعدممبالاة ودونأنيكترث للامر ، ولم يستفهم جلية الموضوع بسؤال واحد • وهي عادة الاتراك لانهم يعتقدون انه من الخزي ان يضطرب اتزان المرء للحوادث البشرية •

ولم تكن ادارة مدينة بغداد المناطة بالباشا في يوم من الايام على شيء من القدرة على تحصيل الضرائب أو المحافظة على الامن الداخلي والخارجي ، وكانت الاموال قلما ترسل من خزينة المدينة الى استانبول ، ذلك لان الباشا فقير وغالبا ما يستدين المبالغ الصغيرة • ويعتقد ان الشاه زاده شقيق ملك بلاد فارس الاكبر والساكن في كرمنشاه يسيطر على اراض شاسعة ، وله مطامع ولعل نفسه تسول له يوما ما ان يضم بغداد الى ملكه ويجعلها عاصمة له ، والرأي الغالب بين معظم الجماعات القاطنين هنا ان بغداد غنيمة سهلة بالنسبة اليه •

وصل أخيرا مدينة بغداد سفير ايراني وهو مبعوث ملك تبريز ليعالج بعض القضايا مع باشا بغداد ، وقد سافر توا الى مدينة النجف لزيارة قبر الامام علي الشهير وينتظر ان يرجع الى عاصمة بلاده ، وتراءى لي انها فرصة مناسبة للذهاب في حماية هذه القافلة الى طهران ومن ثم الى بوشهر • ان الحجاج الايرانيين يلاقون المخاطر والاهوال اثناء زيارتهم ، اذ ان الأعراب غالبا ما يهاجمونهم ويعملون فيهم السلب والنهب • ولما يمض زمن

طويل بعد على هجوم الوهابيين على مدينة كربلاء واعمالهم السيف فى رجالها ولم يسلم سوى النساء والاطفال ، وقد سرق الوهابيون مجوهرات وخزائن ضريح الامام الحسين المقدس لدى الشيعة •

وعندما يتوافد الحجاج الفرس الى بغداد ليرحلوا الى مكة عبر اراضى نجد ، يجب عليهم ان يحصلوا على ترخيص من الوهابيين • ولما كانت المسألة شخصية بينهم يعمدون عادة الى ارسال بعض الرجال الاكفاء للتفاوض فى هذا الموضوع • وقد حدث فى السنة الماضية ان قدم الفرس طلبا الى رئيس الوهابيين بالسماح لهم عبر اراضيهم • وكان الجواب بيد رسول وهابى ان عليهم ان رغبوا فى الحج ان يمروا بمدينة ضرية حيث يقيم زعيم الوهابيين • ولعل الفرس ظنوا ان هذا الطلب مشينا ، أو له دافع آخر ، فقرروا المضى فى طريقهم بعد ان عمدوا الى اساءة معاملة الرسول الوهابى ، دون الالتفات يمنة أو يسرة ، ولكن سرعان ما جابههم الوهابيون بعدد كبير من الرجال وقتلوا وجرحوا عددا كبيرا منهم وأجبر الباقون على الذهاب الى ضرية ، وقد فضل بعضهم الرجوع الى بغداد ، اما اولئك الذين اختاروا البقاء فساموهم يوميا صنوف العذاب الى حين وصول قافلة تنقلهم الى مكة • ويقال ان ضرية مدينة كبيرة تقع على جبل مثل ماردين التى توازيها سكانا ومساحة وطراز بناء • وتقوم فى الجنوب على الطريق المباشر من هنا الى مكة • وما يحيط بها صحراء جرداء بالرغم من وجود بعض البقع الخصبة •

يقول الدكتور فنسنت فى كتابه "Dissertations on the Commerce of Arabia" • بعد الفتح الاسلامى لبلاد فارس ، عمل على فتح طريق عبر شبه الجزيرة العربية من مكة الى الكوفة ، المدينة التاريخية التى ينسب اليها الخط الكوفى ، والتى لا زالت خرائبها بينة ، ومن بينها عمارات عربية قديمة ، قائمة بين ضريح الامام على ونهر الفرات • ولقد قيل ان طول الطريق سبعمائة ميل ، تقوم عليه خانات للقوافل ويتكلم ابو الفداء عن طريق مكة ــ بغداد وطوله سبعمائة ميل ، فتحه الخليفة المهدى عام ١٦٩ للهجرة •

وخيل الىّ ان السفر الى بلاد فارس مع السفير الايرانى فرصة ملائمة ، ولكن مدة بقائه فى النجف غير محددة ، وفى البصرة لم يتوقع وصول باخرة حتى نهاية اكتوبر تصل فى اثنائها طرادة من ميناء بومبى • ولهذا فقد ارتؤى محافظة على صحتى وحرصا على الوقت الا أذهب الى البصرة عن طريق الفرات ، بل أذهب برا الى أحد الموانىء الايرانية ، ذلك لان شواطىء النهر لا تخلو من اللصوص وقطاع الطرق •

والطريق من بغداد الى بوشهر المار بشوستر ، لاح لى انه أقرب الطرق ، هذا الى كونه يمر باقليم سوسا عاصمة الملوك الفرس القدماء ، وتكثر فيه الآثار والاطلال • ولكن هذا الطريق غير مأمون ما لم يكن هنالك حراسة قوية أو قافلة كبيرة ، ولم تتوافر كلتاهما الآن عند ابتداء الرحيل • وفى بعثة السر جون مالكولم[٦] "Sir John Malcolm"

(٦) مؤلف كتاب History of Persia from Earliest times to the Present Date [2 Vols; London, 1829].

الى ملك الفرس ، ان خرج رجلان انكليزيان هما المستر كرانت والمستر فوذرنگهام عبر هذا الطريق من بغداد الى اصفهان لدى عودتهم الى الهند حيث كانا ملحقين بالخدمة العسكرية فى مدراس وفى طريقهم قتلهما احد رؤساء قطاع الطرق . وقد كان عدد كبير منهم يعيث فسادا فى جبال تلك المنطقة وسهولها ، ومنذ ذلك الحين زادت سطوة هؤلاء القتلة والسفاكين وتفاقم بطشهم . ومن ثمة فالطريق الذى بقى مفتوحا امامى هو طريق القوافل الاعتيادى كرمنشاه ، همدان واصفهان ولقد علمت ان قافلة ستشد الرحال فى بداية الشهر القادم فقررت الانضمام اليها .

وفى يوم ٢٦ آب زارنا أحد الدراويش القادمين من أقاصى شمال منطقة بختيارى القديمة، ووصف لنا مدينة بلخ الحالية الواقعة فى اقليم بختيارى وهى مدينة صغيرة ولكن فيها مدارس عديدة لتلقى العلم وجماعة من العلماء والباحثين ، وفيها مكتبة واسعة تضم نوادر الكتب الشرقية ، ولا يعلم هذا الدرويش تاريخ تأسيس هذه المكتبة، ولكنه يؤكد ان مجاميع الكتب التى تضمها كاملة . وعامة سكان بلخ مسلمون من السنة . وذكر مدينة بخارى وهى ، كما يقول ، مدينة عامرة كبيرة كبغداد يسكنها مسلمون منحدرون من القبائل المغولية ، فيها أيضا مدارس وعدد من العلماء ، ولكن مكتبتها ليست نظير مكتبة بلخ . وسمرقند وهى مدينة صغيرة الآن عدد سكانها أقل من المدينتين السابقتين واللغة التركية هى السائدة فى تلك الاصقاع .

وبقيت قبل رحيلى من بغداد اتحين الفرص للتعرف على أمور المجتمع وأحواله ، ومما ساعد على امتزاجى واختلاطى بكافة طبقات السكان هى ملابسى الاسيوية ولحيتى الطويلة ولغتى .

عند دخولى مدينة بغداد لاول مرة ، وجدت لدهشتى ان اللغة التركية سائدة أكثر من العربية(٧) بالرغم من ان هذه المدينة محاطة بالاعراب من كل جانب أكثر من مدينة دمشق وحلب والموصل والتى وجدت العربية سائدة فى جميعها ، واللغة التركية هنا محرفة ومشوشة فى اللفظ والمصطلح ، حتى ان المرء الساكن فى استانبول لا يفهمها عند سماعه اياها لاول مرة ، ولى من البراهين الكافية ان اللغة العربية هنا رديئة جدا ان اتخذنا لغة القاهرة ومكة واليمن قياسا حسنا فى اللفظ والنقاوة . فالكلمات والمصطلحات التركية والفارسية والهندية والكردية تتمازج وتتداخل مع بعضها وتشكل بذلك خليطا غريبا من الكلمات غير المنسجمة .

ان الحركة الادبية هنا راكدة حتى انه ليصعب الحصول على مجموعة نفيسة من الكتب والمخطوطات فى المدينة كلها ، ولم أعثر على أديب لامع ضليع بمعرفة شؤون بلاده . وكنت آمل فى الحصول على نسخة من كتاب الف ليلة وليلة سيما فى هذه المدينة التى طالما كانت مسرحا للقصص التى تضمنها الكتاب نفسه ، ولكننى علمت انه من الصعوبة بمكان العثور على نسخة كاملة من هذا الكتاب ولاسيما بعد ان عرضت مبالغ سخية لاغرى

(٧) ان الاهالى ولا ريب كانوا يتكلمون العربية . واما التركية فقد كانت هى الغالبة فى دواوين الحكومة (المترجم) .

بعض من يقتنونها فى مكاتبهم الخاصة ببيعها •

ن شرطة بغداد عديمة الكفاءة والمقدرة • وغالبا ما ينتهى الشجار والخلافات باراقة الدماء بين الاعراب القاطنين ، وليس من الغريب ان ترتكب جرائم القتل أمام قصر الباشا أو فى أحد الجوامع الكبيرة دون أن يخشى المجرم ملاحقة العدالة له • ومنذ عودة المستر ريج من اوربا الى بغداد ، أى قبل ستة أشهر تقريبا ، ارتكب ما لا يقل عن اثنتى عشرة جريمة داخل المدينة وحدها واحداها وقعت قرب قصر الباشا ، والاخرى فى مدخل جامع الشيخ عبدالقادر • وبالرغم من ان الجريمة ترتكب على مرأى من مئات الناس وفى رابعة النهار ، لم يكترث أحد للامر ولم يتدخل فى موضوع معاقبة المجرم صيانة للامن العام بل ان الناس يقولون « انها قضية دم ، تتعلق بأقارب القتيل الذين قد ينتقمون له ومن شؤون الباشا ان يحقق ، وليس من اختصاصنا التدخل فى هذا الامر » •

وترتكب السرقات دون خوف ولا رهبة فى مختلف ارجاء المدينة ، ويقال ان أحد التجار الاثرياء من المتنفذين يبسط على هؤلاء السراق حمايته وانه يشترى مسروقاتهم فهم بذلك لا يخشون طائلة العقاب •

ونساء بغداد يلبسن الملابس الزرق المنقوشة على شكل مربعات كالمستعملة بين نساء الطبقة الدنيا فى مصر ، وحتى نساء الطبقة العليا لا يستعملون ربطة الرقبة السوداء أو الوردية الشكل المستعملة فى القاهرة ولا وشاح الموسلين الابيض المستعمل فى دمشق ، يضاف الى ذلك ان المرأة هنا تسدل على وجهها خمارا أسود قاتما مما يوحى بالكآبة والحزن لمظهر النساء اللائى قليلا ما يظهرن فى الشوارع ، ولكنهن فى بيوتهن يرتدين الملابس الزاهية الالوان والباهظة القيمة • اما طراز معيشتهن وأداء واجباتهن ، فهما على غرار ما تتبعه نساء المدن التركية الكبيرة •

ونرى من فوق سطح دارنا عند انبثاق الفجر أفراد العائلات التى تحيط بدارنا نائمين على سطوح بيوتهم ، ومن بين العائلات الغنية ينام الزوج على سرير فوقه مرتبة محشوة بالقطن والسرير دون ستار أو ناموسية ، وتنام الزوجة على فراش اخر على الارض غالبا وعلى مسافة معقولة من زوجها ، والاطفال أحيانا ينامون على فراش واحد ان كانوا ثلاثة أو اربعة ، ويستيقظ الجميع عند الفجر ولا يتأخر أحدهم بعد طلوع الشمس ، والكل يعنى بفراشه بعدالنهوض فيطويه ويحمله معه الا الاطفال فان الخادمة أو الام تعنى بفراشهم • وهم اثناء النوم لا يتحررون من ملابسهم كالاوربيين فالرجال بقمصانهم وسراويلهم التحتانية القصيرة وأحيانا بقفطانهم ، وكذلك الاطفال والخدم يبقون بملابسهم الكاملة تقريبا ، اما الامهات والفتيات الشابات فيلبسن سراويلهن التركية الحريرية وعمائمهن اذا كن أغنياء •

وفى مناسبات عديدة شاهدنا مبلغ عناية الزوجات بأزواجهن ومبلغ الاحترام والخضوع التى تبديه الزوجة لزوجها • وفى الصباح عندما يضع الزوج ملابسه ويؤدى الصلاة ، يجلس على السجادة بينما تهيىء الزوجة القهوة وتقدمها لزوجها بخضوع بالغ وتقف على بعد منه مكتفة الايدى ، وبعد

انتهاء الزوج من شرب القهوة تتناول زوجته القدح بمثل ما قدمته اليه وأحيانا تقبل يده علامة الاخلاص والخضوع التام • والنساء يؤدين الصلاة على انفراد من الرجال عادة ولا يحدث ان تنسى الزوجة أو الخادمة هذه الفريضة يوميا ولكن لم الاحظ بين الاطفال الذين هم دون الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من يصلى • وعندما تخرج المرأة من بيتها تكون كاملة الحجاب يصعب حتى على زوجها التعرف عليها •

ومن بين النساء اللائى يشاهدن فى بغداد بين الحين والآخر الجورجيات (الكرجيات) والجركسيات وهن ، مما لا شك فيه ، أجمل من حيث الطبيعة وجمالهن لا تشوبه الزينة المصطنعة • وفتيات المدينة من الطبقة العليا أقل جمالا وبشرتهم أقل طراوة ، وأما نساء الطبقة المتوسطة والدنيا فبشرتهم مائلة الى السمرة وليس فيهم ما يثير الاعجاب الا عيونهم السود المعبرة • والنساء عموما يخضبن شعورهن بالحناء وكذلك راحات ايديهن فتعطى مظهر أيدى البحارة المغطاة بالقطران •

والنساء اللواتى يمتتن بصلة الى العرب يرغبن كثيرا فى تزيين اجسادهن بالوشم ، فضلا عن تخضيب الشفة وهن يضعن علامات الوشم فى مختلف اعضاء الجسم وهناك بعض الجماعات أو الفنانين الذين لهم باع فى هذا النوع من الزينة والذين قضوا فترة من الزمن فى الدراسة والتتبع بأساليب لا تقل عما هو متبع فى المعاهد الملكية للنحت والرسم في اوربا •